مؤتمر الأدباء الأول في جنوب افريقيا

د. نوال السعداوي

لم أتوقّع أني سأزور جنوب إفريقيا في يوم من الأيام. سافرت إلى معظم بلاد العالم في القارّات الخمس. إلاّ جنوب إفريقيا. كم قرأت وسمعت عن ذلك الحكم العنصري «الأبارثايد»، وهؤلاء الثوّار من الرجال والنساء الذين سُجنوا أو قُتلوا أو هربوا وعاشوا في المنفى.

جاءتني الدعوة بالبريد، على شكل خطاب من مدينة جوهانسبرج، من لجنة الأدباء بجنوب إفريقيا، عددهم سبعة، وقّعت الدعوة عنهم نادين جورديمار. قرأت لها رواية منذ سنوات، والتقيت بها مرّة في السويد، في معرض الكتاب، منذ عامين. والأسماء الأخرى لا أعرفها. أتكون هناك أيضاً دوريس ليسنج؟ كنت أتوقّع أن تفوز دوريس ليسنج بجائزة نوبل منذ سنوات. قرأت معظم أعمالها، وهي قرأت روايتي **سقوط الإمام** (بعد ترجمتها) وكتبت كلمة على غلاف الطبعة الإنجليزية، قالت فيها: «هذه رواية لم أقرأ مثلها وأتمنّى أن يقرأها أكبر عدد من الناس...»

قبل أن تهبط الطائرة إلى مطار جوهانسبرج، شقّت عيناي السحب، أطلّ على تلك البقعة النائية من قارّتنا الإفريقية.. ذلك المثلّث في أقصى الجنوب/ مُلتقى المحيطيْن الهندي والأطلسي.. الأرض السوداء التي شربت من دماء أهلها السود.. أُقيمت عليها السجون.. شهدت جدرانها تطوّر وسائل التعذيب: من الخازوق إلى الكرسي الكهربي والقتل الجماعي بوسائل لامرئية.

الوجوه في الطائرة كلها بيضاء. يتحدّثون الإنجليزية. من الجوّ بدت جوهانسبرج كمدينة أوروبية. السقوف الحمراء المدبّبة القمّة.. ناطحات سحب.. مروج خضراء وحدائق وشوارع ذات تقسيمات منظّمة.

كان في انتظاري عدد من الرجال والنساء. شابّة سمراء دقيقة الملامح عيناها تلمعان اسمها «جيسي»، القائمة على تنظيم المؤتمر، ورئيس تحرير جريدة الأمّة الجديدة (New Nation) رجل مربّع الجسم أسمر الوجه اسمه «زيويلاكس سيسلو» الابن الأكبر لوالتر سيسلو رفيق نلسون مانديلا في السجن وفي النضال وفي تكوين حزب المؤتمر الوطني الإفريقي.

ركبت السيّارة إلى جوار زيويلاكس. له شخصية رؤساء التحرير مع التواضع الشديد، ونوع من الرقّة، يتميّز بها الرجال الأفارقة.

مانديلا

ابنه الصغير يجلس في الخلف. له بشرة سوداء لامعة كالأبنوس، وأسنان بيضاء في ابتسامة كالشمس المشرقة.

السيارة تنزلق فوق الشوارع الفسيحة الملساء. كأنني في مدينة أوروبية. حتى اقتربنا من قلب المدينة. بدأت أدرك أنني في مدينة إفريقية. الوجوه السوداء تملأ الشوارع. شباب معظمهم. رجال ونساء. يسيرون بخطوة سريعة. ملامحهم غاضبة. ملابسهم يعلوها غبار الطريق، والسعي المضني للحصول على الرزق.

نعم، الرزق، من بين مخالب الحكم العنصري! هكذا قال لي الأديب الإفريقي الأسود «لويس نيكوزي». جذب انتباهي بحديثه عن تاريخ الأدب في جنوب إفريقيا. هرب من الحكم العنصري منذ ثلاثين عاماً وهو شاب صغير. أصبح أستاذاً مرموقاً للأدب الإنجليزي في جامعة «يومنج» بانجلترا.

عيناه تلمعان من خلف النظّارة البيضاء. له أنف مرتفع مستقيم، واعتزاز بالنفس أشبه بالكبرياء. لا شيء يعجبه في الأدب إلاّ القليل. قالوا في المؤتمر إنه يستحق جائزة نوبل على روايته **عشق الطيور**.

أهداني الرواية ونحن نتناول الغداء على العشب الأخضر في حديقة جامعة جوهانسبرج. قرأتها في ليلة واحدة. مائة وثمانون صفحة. قصّة شاب أسود وشابة بيضاء يجمعهما العشق. لكن الشاب يُزجّ به في السجن ويُتّهم باغتصابها، ويُحكم عليه بالإعدام. قصّة بسيطة ومركّبة في آن واحد. مثل الحياة.

كان النقاش في المؤتمر حامياً، فيه حرارة الشمس والدم الإفريقي. إنه أول مؤتمر دولي للأدباء يُعقد في جنوب إفريقيا. دُعي إليه أكثر من ستين أديباً وأديبة من مختلف أنحاء العالم، ومنهم أدباء جنوب إفريقيا في المنفى. كان حضور النساء واضحاً ومؤثّراً. وتشعّب النقاش من الأدب إلى اللغة إلى التاريخ إلى السياسة إلى الدين إلى الجنس إلى الفلسفة إلى الحب. حتى علوم الفضاء والبيئة

كانت موضع نقاش في علاقتها بالأدب والإبداع.

أدركتُ أن أدباء جنوب إفريقيا أكثر وعياً من غيرهم بترابط الأدب والسياسة والاقتصاد والجنس والدين. إنهم أكثر تحرّراً من غيرهم في قارتنا الإفريقية، وليس عندهم محظورات على الفكر كتلك التي عندنا.

ربّما هي الثورة تُكسبهم نوعاً خاصاً من التحرُّر، نوعاً من الحرية له جمال أخّاذ. عيونهم فيها نظرة مباشرة مستقيمة. والأديبات أيضاً في جنوب إفريقيا أكثر حرية أو جمالاً من غيرهنَّ. دخلت بعضهنَّ السجون. عاشت بعضهنَّ في المنفى. تمشي الواحدة منهنَّ برأس شامخ. بشرتها السوداء تلمع تحت الشمس. عيناها مفتوحتان. لا ينكسر لها جفن. وجهها مكشوف عارٍ من المساحيق. خطوتها قوية فوق الأرض لا تتعثَّر. صوتها واضح يرتفع في المؤتمر بلا تلعثم.

هذا الشموخ النسائي الإنساني الجديد له جاذبية تفوق أحدث أنواع الزينة والعطور. والرجال أيضاً. أمّة جديدة في جنوب إفريقيا تجتاز الحاجز ما بين الحكم العنصري والتحرّر والاستقلال.

في اليوم الأخير ذهبنا لنشهد مسرحية الكاتب الإفريقي «موتوبي موتلولس» عرضتها فرقة «دوز»، وهي تحكي قصّة مجموعة من الصحفيين، رجالاً ونساءً، كانوا يعملون لإخراج مجلّة «درام» الثورية. تدور القصّة في السماء، في الجنّة، حيث يلتقي الموتى من هؤلاء الثوّار رجالاً ونساءً. يستعيدون ذكريات الماضي. يعيشون الفراغ الكبير في الجنّة لا يملأه إلا شرب الخمر والرقص والغناء. ولحظات طويلة من التعاسة وذكريات الحكم العنصري، والسخرية من الحاكم الإنجليزي، الذي يعيش معهم في الجنّة، ومع ذلك لا يزال يمارس عليهم القهر والسلطة.

تألّقت بطلة المسرحية السوداء «مارا لوي تومسون». شحنة من الأحاسيس العنيفة المتناقضة وروعة التمثيل مع الرقص مع الغناء.

في الطائرة وأنا عائدة إلى القاهرة كانت أبيات الشاعر الأسود إيرنستو كاردينال لا تزال تسري في أذني، بقوّة، مثل مياه نهر النيل، رأيتها من الجو، تشقّ الأرض والصخور بإصرار عجيب، وتمشي كالحيّة الطويلة بلون الفضّة، من بحيرة ڤيكتوريا في أوغندة حتى الوادي الأخضر في السودان ومصر.

- أنت في كل بقعة من الأرض
- الكون كله هو قبرك
- حيث جسدك لا يرقد
- لأنك نهضت من الموت
- تصوَّروا أنهم قتلوك ودفنوك
- لكنهم لم يدفنوك
- وإنما أنت بذرة في الأرض
- دفنوها
- فأخرجت أمّة جديدة.

هذه هي الأمّة الجديدة الوليدة في جنوب إفريقيا. لم يستطع الحكم العنصري أن يقتلها أو يدفنها. وإنما هي البذور في الأرض نبتت وأزهرت هذه الوجوه اللامعة تحت الشمس.

لقد اختار الشاعر العربي - منذ هزيمة حزيران - أسلوب الخطابة والوعظ والضجيج، ودخلت القصيدة - منذ ذلك الحين - في مسارب طويلة وموحشة لا تفضي إلّا إلى مصير مجهول وفاجع وموغل في تحقير الشعر والذات. وكانت الانتفاضة بداية جديدة وكافية لوضع الشاعر، ومن ثم لوضع الشعر، في حالة انبعاثية قادرة على تجاوز الخلل والاستعداد لاجتياب آفاق جديدة تستوعب وهج التفيّر الراهن وحيويته وغناه. وكان في مقدورها - أي الانتفاضة - تفجير مكامن الكتابة الإبداعية لدى الإنسان العربي - رجلاً أو امرأة - ولم يكن بعض هذا الشعر الذي انبثق عن هذا التفجير القومي - الإنساني - وأجاد التعبير عنه - دفاعاً عن الحق الفلسطيني بقدر ما كان دفاعاً عن الشعر ذاته؛ بعد أن أصابته الهزائم المتلاحقة بالانحدار وبالضجيج الخامد.

دار الآداب